مجلة "آفاق فكرية"

ص. ص. 134 - 148

رت م د: 2353 - 0367

رت م د إ: 2602-5507

وباء الكوليرا وتأثيراته على المجتمع الجزائري في الفترة الاستعمارية 1834-1867

The cholera pandemic and its effests on the Algerian society during the colonial period 1834-1867

يحي بن فطيمة

جامعة عبد الحميد مهري، قسنطينة 2 (الجزائر)، yahia.benfetima@univ-constantine2.dz

تاريخ الاستلام: 2020/05/25 **تاريخ القبول:** 2020/10/19 **تاريخ النشر:** 2021/10/30

ملخص

يتناول هذا المقال بالدراسة الجانب الصحي للجزائر خلال الفترة الاستعمارية ، فقد عانت الجزائر على غرار دول البحر الأبيض المتوسط من مختلف الأوبئة والأمراض التي انتشرت على أراضيها وخلفت خسائر بشرية معتبرة، ويعد وباء الكوليرا أهم هذه الأوبئة التي ضربت الجزائر خصوصا مع بداية القرن التاسع عشر، نستعرض في هذه المقال مفهوما لوباء الكوليرا، وطريقة انتقاله وآثارها على المجتمع الجزائري، الذي عانى كثيرا من ويلات هذا الوباء، فكان لزاما على الإدارة الاستعمارية الوقوف ضد فعالية انتشار هذا الوباء بفرض تدابير وقائية ضده، فاتخذت تدابير في المدن الكبرى والأقاليم المدنية لحماية المستوطنين بالدرجة الأولى، وتركت الجزائريين يواجهون المصير المرعب للكوليرا.

كلمات مفتاحية: الكوليرا ، الإجراءات الوقائية ، الوفيات ، العدوى.

Abstract

This article examines the health field of Algeria during the colonial period. Algeria, like the countries of the Mediterranean, has suffered from various epidemics and diseases that have spread on its lands and caused significant human losses. The epidemic of cholera is considered to be the one that struck Algeria especially with the beginning of the nineteenth century. This article is an understanding of the cholera epidemic, its transmission method and its effects on the Algerian society, which has suffered greatly from the scourge of this epidemic, so the colonial administration had to stand against the effectiveness of the spread of this epidemic by imposing preventive measures against it, so it took measures in major cities and Civil ones for the protection of settlers primarily, and left Algerians facing terrible fate of cholera.

Key words: cholera, preventive measures, Infection, deaths.

مقدمة:

عانت بلدان ضفاف البحر الأبيض المتوسط من موجات انتشار الكوليرا العالمية، منطلقة من القارة الأسيوية؛ من الهند تحديدا، وقد أوردت المصادر والتقارير الطبية الفرنسية وقتئذ، إحصائيات خطيرة تتعلق بوباء الكوليرا، الذي انتشر في مختلف أنحاء الجزائر ما جعل السلطات الفرنسية تتحرك للتصدي لهذا الوباء الفتاك بمجموعة تدابير وقائية. ومما زاد من هذه المعاناة السياسة الاستعمارية الفرنسية المطبقة في الجزائر بتأثيراتها الاجتماعية والاقتصادية.

إن الإشكال المطروح في المداخلة يتعلق بوباء الكوليرا، فكيف كانت تأثيراته في الجزائر بعمالاته الثلاث، وكيفية تعاملت الإدارة الاستعمارية إزاء هذا الوباء للحد من انتشاره؟

وللإجابة على هذه التساؤلات قسمت الدراسة إلى مجموعة من المحاور وكل محور سيتضمن العديد من العناصر الفرعية:

المحور الأول: تعريف وباء الكوليرا وأسباب انتقاله في الجزائر.

المحور الثاني: كرونولوجيا الكوليرا بين التفشي والانحصار 1834-1868.

المحور الثالث: الإدارة الاستعمارية في مواجهة الكوليرا (الإجراءات الطبية والإدارية).

1. تعريف وباء الكوليرا وأسباب انتقاله في الجزائر:

يدل مصطلح الكوليرا على المرض الوبائي الذي استوطن الهند على ضفاف نهر "الغانج Gange"، فالوباء بمفهومه العام مرض يصيب عددا كبيرا من الأفراد في زمن معين ووقت واحد وينتج عن سبب عام حدث بطريقة معينة (Jacqueb, 1867, p.2)، وتعتبر الكوليرا (le Choléra) من الأمراض التي انتشرت في مختلف بقاع العالم خاصة مع بداية القرن التاسع عشر، وهي واحدة من أسرع الأمراض القاتلة المعروفة، والتي تسبب في ظهورها بكتيريا تؤدي إلى تهيجات عنيفة في الجسم .

تظهر أعراض الكوليرا في شكل إسهال حاد ومتكرر جدا، وعديم اللون كأنه حبات أرز، يصاحبه عطش شديد، ومغص عنيف وبرد في الأطراف، وشحوب في الوجه، وغور في العينين،

ويبدأ المريض بالاختناق، ويفقد قوته تقريبا، ثم يموت المريض خلال ساعات قليلة (Georges, 1892, p.p. 39-40).

1.1. أسباب انتقال الكوليرا:

تتلخص دراسة انتقال الكوليرا في نقطتين رئيسيتين:

أولا/ عامل الكوليرا وهي: البكتيريا المسببة للمرض.

ثانيا/ الوسط الذي يساعد على الانتشار، فالبكتيريا اتخذت من موطنها الهند نقطة للانطلاق إلى بقية دول العالم، فانتشرت واستنسخت إلى مالا نهاية، لكن عامل الكوليرا هذا لم يكن لينجح في الانتشار لولا توفر الشروط المواتية لتطوره، لذا فإن الوسط هو المكمل الرئيسي لقوة انتشار الكوليرا (Proust, 1892, p.184) .

إن للكوليرا عدة أسباب للانتقال، وقد أثارت هذه الأسباب عدة فرضيات بين الأطباء خصوصا قبل اكتشاف بكتيريا الكوليرا من قبل الدكتور كوخ "Dr. Koch" عالم البكتيريا الألماني الشهير سنة 1883 في الهند ومصر (Georges ،1892 ، p.25).

عادة ما تم تفسير انتشار الكوليرا عن طريق الأسباب المباشرة التي تمثلت في البؤر الوبائية عن طريق العدوى بواسطة الاتصالات البشرية، فبؤر الوباء تعني الفضلات التي يطرحها المريض خاصة، بالإضافة إلى ملابسه، وفراشه، أو عن طريق الهواء الموجود في السفن والملابس والمساكن، كلها سبب مباشر للانتقال والعدوى، فإذا أصيب فرد في المسكن تبعه أهله جميعا (Georges, 1892, p. 45)

أما عن فرضية العدوى غير المباشرة فكانت عن طريق الماء أو عبر التربة، فالهواء ليس الوسيلة الوحيدة لمبدأ انتشار وباء الكوليرا فالماء عامل مهم جدا للانتقال السريع (Georges, 1892, p. 25). وقد قدم هذه الفرضية الدكتور شارل بلارين " Charles pellarin" سنة 1849، ثم أكدها الدكتور كوخ" Dr. Koch " باكتشاف البكتيريا المسببة للكوليرا في خزان مائي في مدينة "كلكتا" "Calcutta"التي استخدمت مياهه لسقي مجموعة من الهندوس (Proust, 1892, p.p.156-175). وقد استطاع الدكتور بولتون " Boltone " في تجربة له أن يحافظ على بكتيريا الكوليرا حية لمدة 7

أشهر كاملة في الماء (Georges, 1892, p.50)، أي انه من المرجح جدا أن الماء عامل أساسي للعدوى والانتقال .

عموما من خلال تتبعنا للمصادر التي تحدثت عن أسباب انتقال الكوليرا في الجزائر فإننا نلاحظ أن:

- جلب الكوليرا كان عن طريق السفن القادمة من بلدان التي انتشر فيها وباء الكوليرا، كآسيا نحو أوروبا، ومنها إلى الجزائر عبر فرنسا أو تونس أو المغرب الأقصى.
- انتقال الكوليرا كان بواسطة الجثث؛ جثث الأشخاص الذين توفوا نتيجة إصابتهم بالكوليرا.
- انتقال الكوليرا كان عن طريق القوات العسكرية والقوافل والمهاجرين.
- انتقال الكوليرا كان من خلال المستشفيات والمساكن حيث يمكن أن ينتشر الوباء تدريجيا إلى جميع الغرف بسبب الهواء الناقل للفيروس وبسبب الماء.
- الانتقال من خلال المؤسسات المغلقة كالسجون والكليات والمصّحات (Marey, 1884, p.p. 1462-1463)

2. كرونولوجيا الكوليرا بين التفشي والانحصار 1834-1868:

يعد وباء الكوليرا من أهم الأمراض الواردة إلى الجزائر منذ 1834، وقد تزامن ظهوره في الجزائر مع الأوبئة العالمية الكبرى سنة 1830، 1846، 1865.

1.2. المرحلة الأولى 1834 -1837:

بدأ الوباء في هذه المرحلة من الغرب، أي مقاطعة وهران وضواحيها، بسبب انتقاله عبر شواطئ إسبانيا، حيث كان الوباء يشهد أوجه هناك خاصة مع نهاية جوان 1834، وقد أعلن القنصل الفرنسي في جبل طارق في نوفمبر 1833، عن وصول الكوليرا إلى ملقا، وعدة نقاط من إسبانيا ،ومن المحتمل للغاية وصولها إلى شمال إفريقيا بسبب قرب السواحل. Audouard, 1836, (p.3)، وهكذا جلب المهاجرون المرض من جبل طارق، إلى المرسى الكبير في 28/26 سبتمبر 1834ثم

إلى المستشفى العسكري (guerre, 1931, p.125)، حيث يقول السيد إيدوارد " Audouard " الطبيب الرئيسي للجيش" ... في 26 سبتمبر كان أول غزو للكوليرا لشمال إفريقيا، حيث توفي جزار وامرأته في مستشفى وهران، وفي اليوم 29، دخل أربعة من سجناء المرسى الكبير إلى مستشفى الحصن يعانون من أعراض الكوليرا "(Audouard, 1836, p.p. 4-5)، وانتشر الوباء بسرعة مذهلة في وهران، حيث خلف 467 ضحية مدنية، و500ضحية عسكرية من بينهم 26 ضابطا، ثم ما لبثت أن انتقل إلى مستغانم، أين سقطت في الفترة الواقعة بين 19 أكتوبر و 21 نوفمبر 32 ضحية من أصل 48 مريض، وفي العموم كان عدد سكان مستغانم 1800 بين أهلي و أوروبي و800 جندي من الحامية، وكما حدث في مدينة وهران كان النساء أكثر موتا من الرجال .ثم واصل الوباء مسيره إلى معسكر أين قضى على 1457 من أصل 10000 من السكان، في مدة شهر واحد (أكتوبر) (Audouard, 1836, p.p.12-13). ثم انتشر في المدية وملیانة، ثم مدينة الجزائر في العام الموالي.

وقد انتقل المرض كذلك من مارسيليا وطولون عبر سفينتين مع بداية أوت 1835، فأصاب نزلاء سجن باب الواد، وأصيب 600جندي ،ثم ما لبث أن انتشر في مستشفى الداي، ثم في المدينة، حيث أدى إلى خراب كبير في حي اليهود أين وصل عدد الوفيات أكثر من 100 حالة وفاة في اليوم الواحد، فكان لابد من الإجلاء الجماعي لليهود خارج المدينة إلى بوزريعة، وكانت الحصيلة في العاصمة 1220قتيل من السكان المدنيين، من أصل 24000، و639 من الجيش (Audouard, 1836, p.p. 24-25).

أما في عنابة فقد انتقل الوباء على الأرجح بواسطة البحر من العاصمة وكانت الحصيلة 381 حالة وفاة من بينهم 204 أهلي.

أما عن سنة 1837ظهرت الكوليرا مجدد في عنابة في يوم 17 سبتمبر، نشرتها قوات المفرزة رقم12 الموجهة لحصار قسنطينة، والتي فقدت 25 رجلا قبل إنزالها في ميناء عنابة.

والملاحظ خلال هذه الفترة، أن الكوليرا في شمال إفريقيا تفشت بانتظام من الغرب إلى الشرق، وكانت مدتها من أربعين إلى خمسين يوما، وكانت أكثر انتظاما من الدول الأخرى في سيرها، يسببها نقل الجراثيم عبر الجو بواسطة الهواء أو بواسطة العدوى كما أشار إلى ذلك الطبيب الرئيسي السيد اودوارد " Audouard " (Audouard, 1836, p. 48)

2.2. المرحلة الثانية 1849-1855 :

كانت بداية لانتشار السريع للوباء في 20 سبتمبر 1849 بعد أن نقلت سفينة الفارموند (Pharamond) المرض من مارسيليا إلى العاصمة في 27 أوت 1849 مع أن السفينة كانت تحمل مريضا واحد يعاني من دوار البحر، وتحمل شهادة صحية لخلوها من المرض تم نقل المريض إلى مستشفى الداي ومات هناك ولاحظ الطبيب طرولي "Trollier" جميع أعراض الكوليرا فيه (Vincent & Collorado , 1867, p. 34)، وانتشرت الكوليرا بشكل جدي يوم 6 سبتمبر في السجن العسكري بباب عزون، ثم ما لبث أن انتشرت في أحياء المدينة يوم 10 من الشهر نفسه، ثم الضواحي والمدن المجاورة، أما فيما يتعلق بالقبائل فإن المرض انتشر في الجانب الغربي للعاصمة(Bertherand, 1852, p.9) ، وكانت دائما نقطة انطلاقه السجن العسكري، واستحدث المحجر لمعالجة المرضى المدنيين بواسطة الدكتور ترولييه "Trollier"، وقد خلف حصيلة 504ضحية في الجيش و202 من المدنيين، وفي السنة نفسها بوهران تم جلب الوباء من مرسيليا يومي 2 و3 أكتوبر وتضاعفت حدته يوم 14، أين مات 209 قتيل في هذا اليوم وحده.

تجدر الإشارة إلى صعوبة تشخيص الكوليرا في هذه المرحلة بسبب تشابه الأعراض حيث يخبرنا الدكتور ليونارد 1849كبير أطباء في مستشفى الداي وأستاذ بكلية الطب في الجزائر عن حالة التردد التي أصابت الأطباء في مستشفى الداي وكذلك المشفى العسكري على الرغم من ظهور الأعراض التي تبين انه الوباء حيث يقول " كان هناك تردد بسبب جثتي الضحيتين الأوليتين التي أظهرتا انه سبب الوفاة كان سبب يبدو ماديا سام (الطعام المحضر بالنحاس)" (Vincent & Collorado , 1867, p. 37)

في رسالة مؤرخة يوم 19 جانفي 1850 بعثت بها القنصلية العامة الفرنسية بتونس الى الحاكم العام في الجزائر تبلغه بظهور حالات من الكوليرا في تونس (ANOM, p. F80 658) . وبالفعل أصيبت عمالة قسنطينة بالكوليرا في أول إشارة لها يوم 20 جوان 1850 ، حيث جاء في جريدة المبشر بهذا الصدد " إن الوباء لما حل بتونس واشتد انتقل إلى بعض نواحي قسنطينة غير أن غالب ضرورته حصلت في بعض أعراش قبائل بجاية ،ومن جملة من مات بها المرابط عبد الحفيظ بن محمد " (المبشر، 1850، ص.3)

ثم ظهرت الكوليرا من جديد بمدينة الجزائر، ولكن الوباء أوقف بسبب تدابير العزل، ولكنه انفجر مرة أخرى في عنابة بسبب باخرة "sphinx" التي نقلت المرض من تونس ،ثم تسببت قافلة قدمت من واد سوف في انتشار الوباء وفي سيدي عقبة بالجنوب الجزائري، الذي راح ضحيته 385 من أصل 1300 أهلي، واتجه كذلك الوباء نحو بسكرة سريعا ثم إلى قالمة، سطيف وجرجرة، وأخيرا العاصمة (guerre, 1931 , p.217)، أما مدة كانت الوباء أربعة أشهر تقريبا أي من بداية سبتمبر إلى أوائل جانفي، أدى إلى 201 قتيل في المستشفى العسكري، و241 في المستشفى المدني ثم انتقل إلى الغرب، فانتشر في تلمسان، ووجدة بالمغرب الأقصى، ثم في وهران، بسبب وصول مجموعة صيادين قدموا من تلمسان، وقد كان الوباء هذه المرة أكثر جدية في حصد الأرواح فأصيب في وهران 980 حالة وتوفي 678 وفاة .

وقد أكدت برقية مؤرخة في 5 أوت 1850ان الكوليرا مستمرة في زحفها نحو قسنطينة بسرعة شديدة ، بمحاذاة واد بوسالم وتتجه نحو سطيف ثم اتجهت نحو قبائل الحنانشة وبني بربار في دائرة القل بالإضافة إلى بسكرة وسيدي عقبة (FR ANOM, f80 658, 5 aout 1850) ، وهاجمت الكوليرا كذلك قبائل الفنايا وبني اورغليس وبو جليل ثم امتد بمحاذاة وادي الساحل حيث وصل عدد الضحايا حوالي 150 كما ذكر ذلك التقرير الخاص بالكوليرا في بجاية المؤرخ في25 جويلية 1850(FR ANOM,F80 658, 25 juillet 1850) ، أما جريدة المونيتور دالجيري Moniteur d'Algérie فذكرت أن عدد الضحايا قارب 3000 قتيل (Le Moniteur d'Algérie, 5 septembre 1850, p. 1)

جدول 1 :

إحصاء الوفيات المتعلقة بوباء الكوليرا سنتي 1849 و1850

المقاطعات	وفيات 1849	وفيات 1850
الجزائر	8813	3726
وهران	6836	987
قسنطينة	9434	12596
المجموع	20083	17309
	37392	

المصدر:

Bertherand. Le choléra en Algérie années 1849.1850 et 1851, Bastide Editeur Alger, 1852

نلاحظ من خلال الجدول الخسائر البشرية الكبيرة خلال السنتين المذكورتين في الجدول، فقد تضررت عمالة قسنطينة بشك كبير خاصة في سنة 1850 أين شاهدنا ارتفاع ملحوظ في عدد الوفيات، بينما كانت العمالتين الآخرتين الجزائر ووهران قد تأثرتا في سنة 1849، ويفسر هذا غالبا بالجانب الجغرافي المناخي والتضاريسي حيث سجلت الحالات الأولى للكوليرا في عمالة قسنطينة مع نهاية جوان 1850، مع العلم أن الوسط الساخن يساهم بدور كبير في الانتشار السريع حيث أكد الدكتور أدريان بروست Proust, Adrien أن الدرجة الملائمة لعيش بكتيريا الكوليرا هي درجة حرارة ما بين 30 و40 أي في الفصول الحارة.

أما فيما يخص وباء الكوليرا الذي ضرب الغرب الجزائري سنة 1851 فقد تكبدت مدينة وهران وحدها ما بين بداية جويلية و11 سبتمبر 1851، 504 ضحية (FR ANOM ,F80 658, 9 octobre 1851)

كانت وطأة الوباء دائما كبيرة بالنسبة للأهالي مقارنة بالأوروبيين وهذا ما يوضحه الجدول التالي:

جدول 2 :

إحصاءات لمن مات في بالوباء من شهر أكتوبر 1852الى بداية شهر مارس 1853 في دائرة عنابة

شهر	الأهالي	الأوروبيين	مجموع
أكتوبر 1853	69	35	104
نوفمبر	106	67	173
ديسمبر	216	114	330
جانفي 1853	173	60	233
فيفري	113	43	153
مارس	25	13	38
مجموع	702	332	1034

المصدر:

FA ANOM,F80 657 Michel Lévy, statistique sur la mortalité a Bône rapport , 7mars 1854

نلاحظ بداية الارتفاع عدد الوفيات الأهالي حتى ديسمبر ثم الانخفاض حتى زواله مع بداية شهر مارس، بالإضافة إلى أن العدد الكبير للضحايا كان من جانب الجزائريين مقارنة بالأوروبيين، لعدم توفر الرعاية الصحية والظروف المعيشية المزرية.

عادت الكوليرا مجددا إلى الجزائر يوم 15 جويلية 1854، أين جلبت من مرسيليا عبر سفينة "الأطلس" وكانت الوفيات العسكرية كبيرة جدا حيث بلغ عددها 284 حالة وفاة (Le Moniteur d'Algérie, 5 septembre 1850). ثم أعلنت الكوليرا في مستغانم يوم 26 جويلية 1851 من خلال رسالة موجهة من المحافظ العام للشرطة الى الحاكم العام الذي صرح عن وجود 32 حالة من بينهم 11 وفاة في ظرف ثلاثة أيام فقط(FR ANOM,F80658, 4 aout 1851)

في سنة 1855عاد الوباء وانتشر مجددا في مدينة الجزائر، بسبب امرأة قدمت من مرسيليا، عولجت في غرفة مشتركة فتسببت في انتقال المرض في مستشفى الداي، ثم إلى المدينة، وتسبب الوباء هذه المرة في وفاة 140 شخص في المستشفى العسكري و127 في المستشفى المدني (guerre, 1931 , p. 218).

شهدت الفترة ما بين 1855 إلى 1865 مرحلة استقرار نوعا ما فلم يكن الوباء مستفحلا إلا في نقاط معينة كالمستشفيات وبمدة قصير محدودة للانتشار.

3.2. المرحلة الثالثة 1865_1867:

أخذ الوباء الأوروبي طريقه عبر البحر في سنة 1865م من الهند إلى مكة، فالإسكندرية، وأخيرا مرسيليا، ودخل إلى الجزائر بسبب مفرزة من الممرضين قادمين من مرسيليا من بينهم 262 مصاب، تم إجلاء 2 منهم إلى مستشفى الداي في 13 سبتمبر 1865، حيث غزا المرض المستشفى، أين سجلت 125 حالة وفاة، ثم في المدينة التي هلك فيها 61 شخص، وفي 17 أوت حملت مفرزة للجيش معها الوباء إلى سيدي فرج فسجلت مدينة الجزائر أول حالة مصابة بالكوليرا، وتم عزل المرضى بالكوليرا في الميناء ثم ولج الوباء إلى الثكنات والسجن العسكري[1] تم ترتيب سيارة إسعاف في الحامة بالقرب من حديقة التجارب[2] ، أسفر المرض عن 78 مريض و54 حالة وفاة (Morand, 1868).

[1] أنظر:

Docteur Morand .le choléra a la prison militaire d'Alger épisode de l'épidémie de 1866, imprimerie Duclaux, Alger.

[2] أنظر حول سيارة الإسعاف:

Camille Gros,Compte rendu du service médical de l'ambulance établie au Hamma pendant l'épidémie cholérique de 1866,Typographie Duclaux ,Alger,1866.

وفي سنة 1867هاجمت الكوليرا عمالة قسنطينة، من الغرب نحو الشرق في غالب الأحيان فنجدها غزت البلدية المختلطة لعزابة وسهل عنابة وجهة المسيلة وبرج بوعريريج، وبوسعادة وسطيف، وبسكرة يوم 7 و23 جويلية ثم دائرة باتنة ونظيرتها قسنطينة (Morand, 1866, p. 292)، أما في مدينة قسنطينة فانه بدأ من منطقة سيدي راشد ثم امتد وانتشر إلى المنطقة الوسطى من المدينة وشغل كل المساحة التي يسكنها العرب واليهود، حتى وصلت إلى حدود الحي الفرنسي، بعد فترة شهرين ونصف أي من منتصف جويلية حتى أواخر سبتمبر 1867 كان ضحايا الوباء من الجزائريين 335 ضحية من حوالي 26000 نسمة، و11 ضحية من السكان الأوروبيين من حوالي 1000 روح (Reboulleau, ,Constantine, p. 18) كما فقدت واحات بسكرة خلال ثلاثة أيام 18 حتى 20 جويلية **247** شخص من أصل 5000 ساكن (Nouchi, 2010, p. 292)، ومات من 15حتى 30 أوت من الأهالي العرب أكثر من ألف شخص، يقول الدكتور فيتال [3] "Vital أن الأحياء أصبحوا يهربون ويتخلون عن المرضى وحتى عن الجثث دون دفنها، حتى جنود الحامية الذين فقدوا أكثر من 100 جندي أخلوا المكان، وسادت في النهاية رائحة كريهة منبعثة من تعفن الجثث وتطهيرها كان أمرا غير ممكن، نظرا لأنه لم يعد بالإمكان نقل المطهرات لأن سائقي عربات البغال، لم يوافقوا على نقل أي شيء وحتى بسعر مرتفع " (Nouchi, Correspondance du docteur A. Vital avec I. Urbain(1845.1874) lettre de 30 /7/1867., 1958, p. 217). ولم يبق إلا حل وحيد للجنود وهو الإخلاء.

أما في المسيلة فقد دامت مدة الوباء 15 يوما، من 7 جويلية حتى 22 بحصيلة 144 وفاة من الأهالي، ثم انتقل إلى بوسعادة في 17 جويلية، واستمر حتى 8 أوت وكانت حصيلة الوباء 6096 وفاة من الأهالي (Alix, 1869, p.p. 164-166).

3. الإدارة الاستعمارية في مواجهة الكوليرا (الإجراءات الطبية والإدارية):

[3] ولد Dunkerque Vital في 11فيفري 1810 في طالب الجراحة في مستشفى العسكري فال دو غراس 1830، تحصل على شهادة دكتور في الطب سنة 1834، تقلد عدة مناصب واشتغل في عدة مستشفيات في فرنسا ما بين 1831 و 1836، قدم إلى الجزائر في 1837، وأصبح طبيب درجة اولى ثم طبيب رئيسي درجة ثانية في مشفى قسنطينة سنة 1852ثم طبيب رئيسي درجة أولى في السنة نفسها ، أحيل على التقاعد سنة 1870 راسل اوربان وكان صديقه المقرب، انظر:

André Nouchi, Correspondance du docteur A. Vital avec I. Urbain (1845.1874), Imprimerie E .Imrert ,Alger.1958,

إن اتخاذ التدابير والإجراءات الطبية، أو الوقائية (Prophylactiques) كان حتمية مفروضة على السلطات الإدارية الفرنسية ضد الوباء طيلة تواجدها في الجزائر، عبر فترات مختلفة، للحد منه أو على الأقل لتخفيف وطأته، فقد أرسلت الأطباء إلى أماكن الانتشار أو بؤر الوباء، وعقدت المجالس الطبية التي غالبا ما كانت تدرس وتعالج أسباب ظهور وانتشار الوباء في الجزائر[4] ، وكيفية الوقاية والاحتراز منه، المرض وذلك بتعاون المنظمة الصحية مع السلطات الإدارية: المدنية والعسكرية الموجودة في الجزائر خاصة فيما يتعلق بحماية الموانئ وإنشاء شرطة صحية في المناطق الأكثر استقبالا للمهاجرين سواء من مكة أو أوروبا.

1.3. تدابير على المستوى الخارجي (الدولي):

عملت السلطات الإدارية الاستعمارية وفقا للمبادئ المنصوص عليها في اتفاقية الصحة العالمية 24 مارس 1850، حيث اعتمدت الأطراف المتعاقدة على اللوائح التي يتم مراعاتها في جميع موانئها في البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود، وعند تتبع و دراسة اللوائح المعتمدة يمكن للمرء أن يلاحظ خمسة محاور وعنوانين كبرى في هذه اللوائح تحتاجها السلطات الإدارية والصحية لضمان تنفيذها(FR ANOM ,F80 665) :

- اتخاذ التدابير والتقيد بالإجراءات الصحية قبل مغادرة السفن من موانئها مع تسليم الشهادات الصحية .
- العناية والمتابعة الصحية التي يجب مراعاتها أثناء العبور أي أثناء الرحلة البحرية داخل السفن.
- الإجراءات التي يجب اتخاذها عند الوصول المتعلقة بالمكوث في المحاجر، حيث كان يتم حجر السفن القادمة عبر البحر الأبيض المتوسط 5 أيام مع تقديم الشهادة الصحية أما القادمة عبر المحيط من 3 إلى 5 أيام مع تقديم الشهادة الصحية (Lamagne, p. 24).
- تشكيل لجان صحية في الموانئ وبيان مهامها.

[4] اغلب المصادر التي استقينا منها المادة الخبرية كانت دعوة من الجمعيات أو المجالس الطبية ، او السلطات الإدارية لأعضاء السلك الطبي للإبلاغ عن ملاحظاتهم النظرية والعلمية عن الكوليرا وكيفية اتخاذ التدابير اللازمة ، انظر:

docteur Morand , op cite ,p5 Bertherand , op .cite ,p 4. Audouard, Mathieu- François-Maxence, op cit, P5.

- العقوبات ضد المخالفات التي تقع سواء أكانت خرقا للحجر الصحي او تسليم شهادات صحية مزيفة .

إذن كانت الوقاية البحرية من بين أولويات الإدارة الاستعمارية فنرى أنها تجلت في حماية الموانئ، وتنصيب المجلس الصحي البحري ،حيث يقول الدكتور كولاردو "Collorad" في كتابه حول وباء الكوليرا في الجزائر " ...انه لابد من تدابير فعالة ،يكون تطبيقها بصرامة، وذلك بمساعدة إرادة قوية خاصة فيما يتعلق بالحجر الصحي، فيجب ترتيب أماكن العمل والمخيمات المخصصة للوافدين تجنبا لأي اضطرابات أو مفاجئة بالإضافة إلى التعقيم وتطهير الأشياء المحيطة بالمرضى وذلك وفقا للمادة 73 من لوائح الصحة العالمية المؤرخة يوم 24مارس 1853 (Vincent & Collorado , 1867, p. 18). وكمثال على الحجر الصحي في عمالة قسنطينة، فقد تم حضر جميع الاتصالات عن طريق البحر أو البر خلال الوباء في مدينة جيجل من طرف الدكتور "بوفار Bouffar " (Bertherand, 1852, p. 80). ورغم كل هذه الاحترازات تمكنت الكوليرا من التسلل إلى الجزائر فلم تكن ضمانا كافيا لعدم انتشار الوباء (Georges, 1892, p. 80)

2.3. تدابير على المستوى الداخلي:

نقصد بهذا العنوان الإجراءات المتخذة من طرف السلطات الاستعمارية ضد وباء الكوليرا في المدن أو البلديات والمستشفيات بالإضافة إلى التدابير الخاصة بالأهالي :

1.2.3. المستشفيات:

اقترح الدكتور كولاردو في كتابه الأوبئة التسعة التي ضربت عمالة الجزائر إنشاء مستشفيات معزولة خاصة بمرضى الكوليرا لان المستشفيات كانت مراكز حقيقية لانتشار الوباء بسبب العدوى(Vincent & Collorado, 1867, p.18) ، ولهذا عملت اللجان الطبية المكلفة من طرف الإدارة الاستعمارية ضد الكوليرا باتخاذ الإجراءات المناسبة للحد من انتشارها كإنشاء المحاجر les lazarets والحجر الصحي Quarantaine للمسافرين وعلى سبيل المثال سنة 1849: في مستشفى باتنة كان يتم الاهتمام في كثير من الأحيان بتغيير المرضين وعدم ترك الواحد منهم في الخدمة لأكثر من 8 أيام في جناح الكوليرا. في جيجل يتم اختيار غرفة كبيرة تتميز بتهوية جيدة، تطل على البحر

ومعزولة عن أماكن أخرى في المؤسسة الاستشفائية لمنع اكبر قدر ممكن من اتصال مرضى الكوليرا مع المرضى الآخرين (Bertherand, 1852, p. 80)

2.2.3. التدابير البلدية:

يقول مفتش الخدمة الصحية بالجيش ليفي ميشال Michel lévy "عند اقتراب الأوبئة، على السلطة واجبات يتعين عليها الوفاء بها: ستكون أكثر صرامة في الإشراف على تنفيذ لوائح الطرق الكبيرة والصغيرة؛ زيارة المنازل غير الصحية لتحسينها أو إغلاقها"، وفي تقرير أيضا أرسل إلى رئيس بلدية قسنطينة حول الكوليرا التي تفشت في المدينة خلال أشهر: جويلية، أوت وسبتمبر 1867، يقول الدكتور "روبولو Reboulleau "... طبقت في مدينة قسنطينة مجوعة تدابير من بينها : تنظيف الصرف الصحي البلدي للشوارع والمجاري والمراحيض العامة، والمنازل، وتم اتخاذ وسائل وقائية للحد من العدوى عن طريق تهوية الحمامات ومنع ازدحام أعداد كبيرة من الناس في أماكن ضيقة خاصة أثناء الليل، وفصل الأفراد المرضى عن أسرهم." (Reboulleau, Constantine, p. 27)

3.3. إجراءات بالنسبة للأهالي:

لقد حملت السلطات الاستعمارية الأهالي سبب انتشار الوباء حيث يقول الدكتور فيتال الطبيب الرئيسي في مستشفى قسنطينة "...يموت الأهالي بشكل جماعي على جانب السمندو في قبيلة العلمة وفي نقاط أخرى من عمالة قسنطينة، ويستنتج من تقارير الأطباء هناك أن البؤس وعدم كفاية الطعام والموت جوعا من أسباب 9 جويلية 1867 " (Nouchi, Correspondance du docteur A. Vital avec I. Urbain (1845.1874) lettre de 30 /7/1867., 1958, p. 217، وهذا ما أكده أيضا بوزري: "كان العرب ينامون تحت الهواء الطلق، يفترشون الأرض وبطانيتهم غالبا ما تكون ممزقة إن وجدت، ويشربون ماء كريه الرائحة، ويأكلون الخبز فقط المتكون من دقيق ونخالة الشعير، أو القمح مع قليل من البصل، مازالوا يتغذون على التين والبطيخ والأعشاب والجذور بأنواعها، ما أدى إلى تأثيرات كبيرة للعدوى"(Bouzret, 1869, p.p.62-63)، قد عملت الإدارة الاستعمارية على إشعار وتوعية الأهالي بالتدابير والإجراءات الواجب اتخاذها في حال تفشي الوباء من خلال نشرها في جريدة المبشر وذلك من خلال فحوى الرسالة المؤرخة في 6 نوفمبر 1849من وزارة الحرب إلى الحاكم العام يخبره فيها بإعلام الناس بكيفية اتخاذ التدابير اللازمة من

الكوليرا (FR ANOM , F80 658)، لقد كان المكتب العربي الممثل الشرعي للسلطة، وكانت مهمته في الحفاظ على الصحة العمومية، من بينها متابعة الوضع الصحي، وتوفير الأدوية وتوزيعها مجانا، على كل من يتردد على المكاتب العربية.

وخلال فترة الكوليرا قامت الإدارة من تحديد عدد الوفيات، بإجبار شيوخ القبائل على القدوم كل يوم للإعلان عن وفيات قبائلهم ولكن هذه الإحصائيات كانت غير دقيقة في أغلب الأحيان.

ولقد قام المدير الطبي لمستشفى باتنة بتزويد المكتب العربي Bureau Arabe، بالتعليمات الخاصة التي كتبت وطبعت باللغة العربية، وتم نشرها بين القبائل تتعلق بالاحتياطات الصحية والوسائل العلاجية التي تكون في متناول السكان الأهالي خاصة القياد والشيوخ (Dukerley, 1868, p.24)

خاتمة :

إن وباء الكوليرا الآسيوية من الأمراض المستجدة التي ظهر مع بداية القرن التاسع عشر في الجزائر والذي حل محل الطاعون، حيث تعاقبت هجماته على أوروبا مما أدى لتسربه إلى الجزائر وقد حملت السلطات الاستعمارية الأهالي المسلمين الجزائريين مسؤولية كارثة الوباء الذي أصابه، وحصد عدد هائل منهم، وذلك باتهامهم بتوفير بيئة حاضنة للوباء، لعدم توفيرهم لشروط النظافة والوقاية، وثقة الأهالي في الطب الشعبي والكهنة، ورفضهم التجاوب مع التدابير الصحية، ولكن الحقيقة غير ذلك، لأن المتسبب الرئيسي في الوباء هي السلطة الاستعمارية الفرنسية، التي طبقت سياسة التجويع والتجهيل والإفقار، فكانت سببا في تدهور الوضع الاجتماعي والصحي.

قائمة المصادر والمراجع:

1. Alix, C.-E. (1869). Observations médicales en Algérie. paris: Victor Rozier éditeur.
2. ANOM FR F80 658. (5 aout 1850). rapport périodique extrait d'une dépêche de Constantine .
3. ANOM, F. (s.d.). lettre de délégation et consulat général de la république française a Tunis au gouverneur général d'Algérie 19 janvier 1850.
4. Audouard, M.-F.-M. (1836). Histoire du choléra-morbus qui a régné dans l'armée française au nord de l'Afrique et parmi les autres habitants de cette contrée, en 1834 et en 1835,1836. paris: imprimer Dezauche.
5. Bertherand. (1852). Le choléra en Algérie années 1849.1850et1851,Alger,1852. Alger: Bastide Editeur .
6. Bouzret, A. (1869). Histoire des désastres de l'Algérie, 1866-1867-1868, sauterelles, tremblement de terre, choléra, famine . Alger : imprimer central algériennes .
7. Dukerley, I. (1868). Notice sur les mesures de préservation prises à Batna(Algérie) pendant le choléra de 1867 et sur leurs résultats . Delahaye Libraire-éditeur.

8. FA ANOM,F80 657 Michel Lévy, statistique sur la mortalité a Bône rapport . (7mars 1854).
9. FR ANOM , F80 658 . (s.d.). , article de moubachir sur l'invaion de choléra 6 november 1849.
10. FR ANOM ,F80 658. (9 octobre 1851). État des décès cholérique dans la ville d'Oran pendant l'année 1851.
11. FR ANOM ,F80 665. (s.d.). travaux publics organisation de service sanitaire maritime, acte et instruction pour l'exécution de la Convention internationale . 1853.
12. FR ANOM F80 658. (s.d.).
13. FR ANOM, f80 658. (5 aout 1850). Rapport périodique extrait d'une dépêche de Constantine .
14. FR ANOM,F80 658. (25 juillet 1850.). le choléra sévit dans les environ de Bougie .
15. FR ANOM,F80658. (4 aout 1851.). lettre de commissaire général au gouverneur général d'Algérie .
16. Georges, D. (1892). Le choléra ses causes, moyens de s'en préserver . paris: Rueff et Cie éditeur.
17. guerre, M. d. (1931). L'Œuvre du Service de Santé militaire en Algérie, 1830-1930 . Paris: Charles-Lavauzelle & Cie.
18. Jacqueb, D. .. (1867). Le choléra : préservation, traitement, causes, choléra des Alpes. imprimerie de Charles Ducrey.
19. Lamagne, E. D. (s.d.). ,du service sanitaire recueil des règlements et instructions sur la police sanitaire en France et en Algérie . paris: imprime de schiller.
20. Le Moniteur d'Algérie. (5 septembre 1850). (.N°1066), 1.
21. Marey, E.-J. (1884). Sur l'épidémie de choléra: les eaux contaminées et le choléra (Vol. XIII). Bulletin de l'Académie de médecine.
22. Morand, D. (1866). .le choléra a la prison militaire d'Alger épisode de l'épidémie de 1866. Alger: imprimerie Duclaux.
23. Morand, D. (1866). le choléra a la prison militaire d'Alger épisode de l'épidémie de 1866. Alger: imprimerie Duclaux.
24. Morand, D. (1868). .le choléra a la prison militaire d'Alger épisode de l'épidémie de 1866. Alger: imprimerie Duclaux.
25. Nouchi, A. (1958). Correspondance du docteur A. Vital avec I. Urbain(1845.1874) lettre de 30 /7/1867. Alger: E.Imrert .
26. Nouchi, A. (2010). enquête sur le niveau de vie des populations rurales constantinoises. Alger: édition sedia.
27. Proust, A. (1892). La défense de l'Europe contre le choléra . paris : G. masson éditeur.
28. Reboulleau, D. (,Constantine). ,Rapport sur l'épidémie de choléra qui a régné a Constantine en juillet aout et septembre 1867adresse a le maire de ville de Constantine . 1867: imprimerie de louis marle .
29. Vincent, M., & Collorado . (1867). le choléra d'après les neuf épidémies à Alger depuis 1835 Jusqu'ou 1865. paris: Victor rosie éditeur.
30. المبشر ,ج 22 .شوال 1266هـ 30أوت .1850جريدة المبشر.3 ,